عبقرية محمد ﷺ العسكرية

حروب دفاع

قلنا في الفصل السابق إن الإسلام لم ينجح لأنه دين قتال كما يردد أعداؤه الكارهون، ولكنه نجح لأنه دعوة لازمة يقوم بها داعٍ موفَّق ، وليس بين أسباب نجاحه سبب واحد يصعب فهمه على هذا الاعتبار .

ونريد في هذا الفصل أن نقول : إن محمداً ﷺ كان يجتنب الحرب مع إحسانه فنون الحرب ما لم يكن يحسنه المعتدون عليه ، وأنه لم يجتنب البدء بالقتال لعجز أو خوف، ولكنه اجتنبه لأنه نظر إلى الحرب نظرته إلى ضرورة بغيضة ويتجنبها حيثما تيسّرت له الوسيلة الناجحة . (١)

وأن الأديان الأخرى ما كانت تكف عن عمل أقدم عليه النبي ﷺ لو كانت دعوتها كدعوته .

الحقيقة الأولي في الردّ على كذب انتشار الإسلام بحد السف هي : أن الإسلام في أول عهده كان هو المعتدَى عليه وقد صبر المسلمون على المشركين حتى أُمِروا أن

---

(1) وفي هذا يقول تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦]

يقاتلوا من قاتلهم ولا يزيدون على ذلك ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠] .

وقد صبر المسلمون على المشركين حتى أمروا أن يقاتلوهم كافة كما يقاتِلُون المسلمين كافة فلم يكن لهم أبداً عدوان ولا إكراه . وحورب النبي ﷺ كما أسلفنا كانت كلها حروب دفاع ، ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد التيقن من نقض العهد وإصرار الأعداء على القتال ، وتستوي في ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم .

ففي غزوة تبوك عاد الجيش الإسلامي بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال، وكان قد بلغ النبي ﷺ خبر أنهم يجهزون جيوشهم على حدود البلاد العربية فلما عدلوا عن القتال عدل الجيش الإسلامي عنه رغم كثرة الجهد والنفقة في تجهيز الجيش والسفر .

الحقيقة الثانية : أن الإسلام لم يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والإقناع إنما حارب بالسيف سلطة تقف في طريق تبليغه للناس .

ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية وإنما كانوا أصحاب سيادة موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة في الأبناء بعد الآباء .

وقصد النبي ﷺ بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها ؛ لأنهم أصحاب السلطة التي ترفض العقيدة الجديدة وتصدها .

ومن التجارب التي دلَّ عليها التاريخ الحديث كما عليها التاريخ القديم أن السلطة لا غنى عنها لإنجاز وعود المصلحين ودعاة الانقلاب .. ومن تلك التجارب تجربة فرنسا في القرن الماضي (١) وتجربة روسيا في القرن الحاضر (٢) وتجربة مصطفى كمال

---

(1) يقصد الكاتب الثورة الفرنسية التي قامت سنة ١٧٨٩م .

(2) يقصد الكاتب الثورة الروسية البلشفية التي قامت سنة ١٩١٧م .

في تركيا [١] وتجارب سائر الدعاة من أمثاله في سائر البلاد . فمحاربة السلطة بالقوة غير محاربة الفكر بالقوة ، ولا بد من التمييز بين العَمَلَين؛ لأنهما مختلفين حقاً .

الحقيقة الثالثة : أن الإسلام لم يستخدم السيف إلا في الأحوال التي أجمعت شرائع الإنسان على استعمال السيف فيها .

فالدولة التي يثور عليها من يخالفها من بين من يعيشون على أرضها ، ماذا تصنع إن لم تحتكم إلى السلاح ؟ [٢]

وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إلا عَلَى الظَّالِمِينَ) [البقرة:١٩٣]

والدولة التي يحمل أناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها بماذا ينتهي الخلاف بينهم إن لم تنهيه بقوة السلطان ؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم أيضاً حيث جاء فيه (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) [الحجرات:٩] .

وفي كلتا الحالتين يكون السلاح أخر الحلول ، وتكون نهاية الظلم والاعتداء نهاية الاعتماد على السلاح ، ثم يأتي الصلح والتوفيق أو التفاهم بالرضى والاختيار. [٣]

---

(1) انتخب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية التركية عام ١٩٢٣م عقب الإعلان الجمهوري. أجرى أتاتورك عدة تغيرات جذرية من شأنها إيصال تركيا إلى مستوى الحضارة المعاصرة .

(2) هناك فرق بين الثورات السلمية على ظلم الحاكم واستبداده وفساده والعبث بمقدرات الشعب ومن أجل إقامة دولة العدل والحق والقانون ، وبين الثورة المسلحة التي تخرج على دولة الحق والعدل وإقامة شرع الله وتبغي الفوضى والظلم والباطل .

(3) سوف نستوفي موضوع الجهاد في الإسلام في التعليق النهائي في الباب الثاني .

الحقيقة الرابعة : أن الأديان الكتابية : اليهودية والمسيحية [١] بينها فروق لا بد من ملاحظتها عند البحث في هذا الموضوع .

فاليهودية كانت أشبه بالعصبية المحصورة في أبناء إسرائيل منها بالدعوة العامة لجميع الناس ، فكان أبناؤها يكرهون أن يشاركهم غيرها فيها لذلك لم يدعوا غيرهم إليها باللسان ولم يجاهدوا في سبيل نشرها بالسيف ، ولا وجه إذن للمقارنة بين اليهودية والإسلام في هذا الأمر .

أما المسيحية فهي قد اعتنت أولاً : بالآداب والأخلاق ، ولم تعتن مثل هذه العناية بالمعاملات ونظام الحكومة .

وقد ظهرت ثانياً في بلاد المعاملات والنظم الحكومية فيها قوانين تحميها فهي قد عَدَلَت عن فرض المعاملات والدساتير مضطرة بسبب وجود هذه القوانين لا لأن المعاملات والدساتير ليست من شأن الدين .

وقد ظهرت ثالثاً في وطن تحكمه دولة أجنبية ذات قوة وقدرة ، وليس للوطن الذي ظهرت فيه قدرة بمواجهة تلك الدولة في ميدان القتال .

أما الإسلام فقد ظهر في وطن لا سيطرة للأجنبي عليه ، وكان ظهوره لإصلاح المعيشة وتقويم المعاملات وتقرير الأمن والنظام ، وإلا فلا معنى لظهوره بين العرب ثم وراء الحدود العربية .

فإذا اختلفت نشأة الإسلام ونشأة المسيحية فذلك اختلاف موضوعي طبيعي لا مفر منه ولا اختيار لأحد من الخَلْق فيه .

---

(1) المقصود بالأديان الكتابية ما يعتقده أصحابها المتأخرون فيها لا التي أنزلها الله ودعا إليها رسله .

والدليل على ذلك أن المسيحية صنعت صنع الإسلام حين قامت بين أهلها الدول والجيوش ، وحين استقلَّت شعوبها عن الأجانب المسيطرين وزادت حروب المذاهب فيما بين أبنائها على حروب صدر الإسلام مجتمعة . (١)

الحقيقة الخامسة : أن الإسلام شرع الجهاد ، وأن النبي ﷺ قال : " أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ الناسَ حتى يَشهدوا أن لا إلهَ إلا اللهُ . ويُؤمنوا بي وبما جئتُ بهِ . فإذا فعلوا ذلكَ عصموا منِّى دماءَهم وأموالَهم إلا بحقِّها . وحسابُهُم على اللهِ " [صحيح مسلم] وجاء في القرآن الكريم: (فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لا تُكَلَّفُ إلا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلا) [النساء:٨٤]

وحدث فعلاً أن المسلمين فتحوا بالسلاح بلاداً غير بلاد العرب ، إلا أن هذه الفتوح تأخرت في الزمن ، ولم يتم شيء منها قبل استقرار الدولة للإسلام ، فلا يمكن أن يقال أنها كانت وسيلة الإسلام للظهور ، وقد ظهر الإسلام قبلها ، وتمكن في أرضه ، واجتمعت له جنود تؤمن به ، وتقدم على الموت في سبيله .

---

(1) لم يكن الفتح الإسلامي للبلاد التي فتحها إلا تطهيراً لها من احتلال القوى الغاشمة : الفرس والروم التي سامت هذه البلاد سوء العذاب : استولت على خيراتها وحرمت أهلها منها ، وقهرت الشعوب ، وأكرهتها على ما لا ترضى من دين واعتقاد ونظم ، فلمَّا فتح المسلمون تلك البلاد وطردوا منها الغزاة نشروا فيها العدل والحق ولم يأخذوا ما ليس لهم بحق بل عمَّروا البلاد وأصلحوها فكانوا خيراً وبركة على البلاد وأهلها والناظر في أحوال الشام والعراق ومصر والمغرب والأندلس وغيرها قبل الفتح الإسلامي وبعده يجد ذلك جليّاً ولقد كان أهل هذه البلاد ساعدوا المسلمين على فتح بلادهم وتخليصهم من مغتصبيها كما هو الحال مع المصريين عند فتح مصر ، ولقد شهد مؤرخو هذه البلاد بعدل المسلمين وصلاحهم وإصلاحهم وعدم إكراههم على اعتقاد ما يكرهون من عقائد ومذاهب ، وهذا بخلاف الاحتلال الغربي المسيحي لشعوب العالم حيث فقد أفقروها وقهروها كما هو معلوم من حقائق الاحتلال الإنجليزي والفرنسي والإيطالي في القرنين ١٩، و٢٠ ، والاحتلال الأمريكي والروسي في القرنين ٢٠ ، و٢١ .

ثم إن هذه الفتوح هدفها المحافظة على الدولة الإسلامية لا فرض العقيدة الدينية فقد جاز الإسلام للأمم أن تبقى على دينها مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة، وهو أقل ما تطلبه الدولة الغالبة من الدولة المغلوبة . (1)

والحقيقة السادسة : إن المقارنة بين ما كانت عليه شعوب العالم قبل إسلامها ، وبعد إسلامها تدل على أن الإسلام انتشر بالإقناع لمن أراد الاقتناع . واستقرَّ السلام بين تلك الشعوب بعد أن دمَّرتها الحروب ، وأصبح لها نظام بعد الفوضى والاضطراب، واطمأنَّ الناس على أرواحهم وأرزاقهم وأعراضهم ، وكانت جميعها مباحة لكل غاصب من ذوي الأمر والجاه .

إن الإسلام مقنع لمن يحسن الاختيار ، إلى جانب قدرته على إكراه المعاندين الذين يقفون في طريق الإصلاح .

ولم ينتشر الإسلام بتوزيع الدواء والطعام على المرضى والفقراء ، ولا بتربية الأطفال عليه وهم لا يعقلون ، ولا إكراه من يتمسك بعقيدته على الدخول فيه كأديان أخرى يبشَّر بها عن طريق هذه الوسائل إنما كانت وسيلته الإقناع العقلي بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن . ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥]

وخلاصة ما سبق أن الإسلام لم يوجب القتال إلا من حيث أوجبته جميع الشرائع، والذين خاطبهم بالسيف قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك (2) وأن الإسلام

---

(1) الفتح الإسلامي لم يكن على هذا النحو غالب ومغلوب والغالب يفرض الطاعة والجزية راجع التعليق السابق .

(2) لم يوجب الإسلام القتال إلا من حيث أوجبته الشرائع السماوية لا شرائع من ينتسبون إليها فشرائع الله شرائع الحق والعدل والخير ، وشرائع البشر شرائع فيها الحق كما فيها الباطل وفيها العدل كما فيها الجور وفيها الخير كما فيها الشر .

عقيدة ونظام ، وهو من حيث النظام شأنه كشأن كل نظام في أخذ الناس بالطاعة ومنعهم أن يخرجوا عليه .

القائد البصير

لم يكن الإسلام إذن دين قتال ، ولم يكن النبي ﷺ رجلاً مقاتلاً يطلب الحرب للحرب، ولكنه مع هذا كان القائد البصير إذا وجبت الحرب ودعته إليها المصلحة اللازمة ، يعلم من فنونها بالإلهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمران ، ويحسن اختيار توقيت الحرب وتسيير الجيوش ، ورسم خططها ، وقد يكون أخذه ﷺ بالمشورة الصالحة دليل على حسن القيادة تقترن بالابتكار والإبداع ؛ لأن القيادة الحسنة هي القيادة التي تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجاع . وهي التي تسخِّر كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام .

وقد كانت غزوة بدر هي التجربة الأولى للنبي ﷺ في إدارة المعارك الكبيرة فأخذ بمشورة الحُبَاب بن المنذر حين اقترح عليه الانتقال إلى غير المكان الذي نزل فيه [1] ثم فهم من تجربة واحدة ما قلَّ أن يفهمه القادة العسكريون من تجارب مختلفة.

١- كانت خطة نابليون ، أبرع القادة المحدثين ، تقوم على ثلاثة أمور : اختيار الموقع الملائم ، واختيار الفرصة ، ومعاجلة العدو قبل تمام استعداده . وكان النبي ﷺ سابقاً إلى تلك الخطط في جميع تفصيلاتها فكان ، كما ذكرنا من قبل ، لا يبدأ أحداً

---

(1) قال الحُبابُ بنُ المُنذِرِ لرسولِ اللهِ ﷺ : أرأيتَ هذا المنزلَ ، أمَنزلًا أنزلَكهُ اللهُ ، ليسَ لنا أن نتقدَّمَه ولا نتأخَّرَ عنهُ ، أم هو الرَّأيُ والحربُ والمكيدةُ ؟ قال : بل هوَ الرَّأيُ والحربُ والمكيدةُ . قال يا رسولَ اللهِ فإنَّ هذا ليس بمنزلٍ ، امضِ بالنَّاسِ حتَّى نأتي أدنى ماءٍ من القومِ فنُعسكِرَ فيه ، ثمَّ نَعورُ ما وراءَه من الآبارِ ، ثُمَّ نَبني علَيهِ حوضًا فنملأه ماءً ، ثُمَّ نقاتلُ القومَ فنشربُ ولا يشرَبونَ ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ علَيهِ وسلَّمَ : لقد أشَرتُ بالرَّأيِ ، ثم أمرَ بإنفاذِهِ ، فلم يَجِئ نصفُ اللَّيلِ حتَّى تحوَّلوا كما رأى الحُبابُ ، وامتَلكوا مواقعَ الماءِ. " حديث ضعيف منقطع رواه ابن إسحاق .

بالعدوان ، ولكنه إذا علم بعزم الأعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموه بل أسرع بالهجوم عليهم كما حدث في غزوة تبوك فبرغم شدة الحر إلا أن ذلك لم يمنع النبي عن الخطة التي تعودها فحث المسلمين على جمع الأموال وجمع الرجال ولم يهتم بما توقعه المنافقون من هزيمة جيش المسلمين ، ولم يحدث ما توقعوه .

وكان النبي ﷺ إذا امتلك القوة العسكرية قضى على قوة أعدائه ، ولا ينتظر حتى يهاجمه أولئك الأعداء إلا إذا كان هجوم الأعداء عليه هلاكاً لهم كما حدث في غزوة الخندق . (1)

---

(1) تبدأ غزوة الخندق بتحريض يهود بني النضير القبائل العربية على غزو المدينة المنورة، فاستجاب لهم من العرب : قبيلة قريش وحلفاؤها : كنانة ، غطفان ، فزارة ، بنو مرة ، أشجع ، وبنو أسد وسليم وغيرها، وقد سُمُّوا بالأحزاب، ثم انضم إليهم يهودُ بني قريظة الذين كان بينهم وبين المسلمين عهدٌ وميثاقٌ . عندما بلغ النبي ﷺ خبر هذه الجيوش التي لا طاقة للمسلمين بمواجهتها فقد بلغ عدد مقاتليها عشرة آلاف مقاتل ، استشار أصحابه فأشار سلمان الفارسي بحفر خندق ، وأيد المسلمون رأي سلمان ، وحدد الرسول ﷺ مكان حفر الخندق شمال المدينة المنورة وشارك ﷺ المسلمين في حفره ، وتم حفر الخندق في فترة وجيزة رغم كثرة الصعوبات التي واجهت المسلمين ، لم يكن حفر الخندق من الأمور المعروفة لدى العرب في حروبهم، بل كان الأخذ بهذا الأسلوب غريبًا عنهم، وبهذا يكون الرسولُ ﷺ هو أولَ من استعمل الخندق في الحروب في تاريخ العرب والمسلمين، فقد كان هذا الخندق مفاجأة مذهلة لأعداء الإسلام، وأبطل خطتهم التي رسموها فعندما وصل الأحزاب حدود المدينة المنورة عجزوا عن دخولها، فضربوا حصاراً عليها دام ثلاثة أسابيع، وأدى هذا الحصار إلى تعرُّض المسلمين للأذى والمشقة والجوع. ولم يكتف النبي ﷺ ببذل غاية الجهد في الحفر بل كان يدعو الله عن الدعاء والاستعانة بالله تعالى واستجاب الله تعالى دعاءَ نبيه على الأحزاب، فصرفهم بحوله وقوته، وزلزل أبدانهم وقلوبهم، وشتت جمعهم بالخلاف، ثم أرسل عليهم الريح الباردة الشديدة، وألقى الرعب في قلوبهم، وأنزل جنودًا من عنده سبحانه، وكان الرسول ﷺ يقول في دعائه بعد ذلك : " لا إله إلا اللهُ وحده . أعزَّ جندَه . ونصر عبدَه . وغلب الأحزابَ وحدَه .فلا شيءَ بعدَه . " (متفق عليه) ويقول الله تعالى مذكراً المؤمنين بنعمه عليهم في غزوة الأحزاب : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب:٩]

٢- وكان نابليون يقول أن نسبة القوة المعنوية إلى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة إلى واحد .

والنبي ﷺ كان عظيم الاعتماد على هذه القوة المعنوية التي هي في الحقيقة قوة الإيمان ، وربما بلغت نسبة هذه القوة إلى الكثرة العددية كنسبة خمسة إلى واحد في بعض المعارك ، مع رجحان الفئة الكثيرة في السلاح والخيول إلى جانب رجحانهم في عدد الجنود . ومعجزة الإيمان هنا أعظم جداً من أكبر مزية بلغها نابليون بفضل ما أودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة ، فالنبي ﷺ كان يحارب عَرَباً بِعَرَب ، فلا يقال هنا أن الفضل لقوم على قوم في المزايا الجسدية أو المزايا النفسية كما يمكن أن يقال هذا في جيوش نابليون ، وكل فضل هنا فهو فضل العقيدة والإيمان .

٣- وقد كان نابليون مع اهتمامه بالقضاء على القوة العسكرية لا يغفل القضاء على القوة المالية أو التجارية إذا استطاع ذلك . فكان يحارب الإنجليز بمنع تجارتهم وسفنهم أن تصل إلى القارة الأوربية ، وتحويل المعاملات عن طريق انجلترا إلى طريق فرنسا .

وكذا كان النبي ﷺ يحارب قريشاً في تجارتها ، ويبعث السرايا لمهاجمة القوافل كلما سمع بقافلة منها .

وأنكر بعض المتعصبين من كتَّاب أوروبا هذه السرايا ، وسموها " قطعاً للطريق " وهي هي طريقة المصادرة نفسها التي أقرَّها " القانون الدولي " وعمل بها قادة الجيوش في جميع العصور ، ورأينا تطبيقها في الحرب الحاضرة والحرب الماضية [١] حكيماً تارة وبالغ الغباء وتجاوز الحد تارة أخرى .

---

(1) يقصد العقاد بالحرب الحاضرة الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥) التي كانت دائرة أثناء كتابته هذا الكتاب ، والحرب الماضية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨) .

٤- كان نابليون يوجه همَّه إلى الجيش ، ولا يقتحم المدن ولا يهتم بمحاصرتها إلا لضرورة عاجلة .

ونرجع إلى غزوات النبي ﷺ فلا نرى أنه حاصر بلداً إلا أن يكون الحصار هو الوسيلة الوحيدة لإجهاض القوة التي تستعد لمهاجمة المسلمين ، أو قبل نجاحها في الغدر والوقيعة كما حدث في حصار بني قريظة وبني قينقاع فكان الحصار هنا إسراع جيش المسلمين بالهجوم .

٥- وكان نابليون معتزاً برأيه في الفنون العسكرية وخاصة الخطط الحربية ومع ذلك لا يستغنى عن مشاورة أصحابه في مجلس الحرب الأعلى قبل العزم على القتال ، وكان محمد ﷺ يستشير أصحابه في خطط القتال ويقبل مشورتهم وهو أرجح الناس عقلاً ، ومن ذلك ما صنعه في غزوة بدر حين أشار عليه الحباب بن المنذر بالانتقال إلى مكان غير الذي نزلوا فيه أول الأمر وردم الآبار وبناء حوض للشرب لا يصل إليه الأعداء ، وعمل بمشورة سلمان الفارسي في حفر الخندق عند المنفذ الذي يخشى أن يهجم منه المشركون على المدينة ؛ فحفر الخندق وعمل النبي ﷺ بيديه الكريمتين في حفره .

وقبول النبي ﷺ مشورة سلمان عمل من أعمال القيادة الرشيدة غير أننا نعتقد أنه ﷺ كان سيشير بحفر الخندق لو لم يكن سلمان الفارسي بين أهل المدينة أثناء غزوة الخندق ؛ لأنه ﷺ كان شديد الاهتمام بتأمين حدود بلاده وحماية ظهور المسلمين في جميع غزواته . وفي غزوة " أُحُد " جعل الجبل إلى ظهره وأقام على المكان الذي يخشى منه نفاذ الأعداء والالتفاف خمسين رامياً مُشَدِّداً عليهم في التزام موقفهم قائلاً لهم : " احموا ظهورنا فإنا نخاف أن يجيئوا من ورائنا والزموا مكانكم لا تبرحوا منه ، وإن رأيتمونا نهزم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا

تعينونا ولا تدفعوا عنا ، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل " (١)

والذي يفعل ذلك هذا في شِعْب جبل لا يفوته أن يفل مثله في حدود المدينة ، ولكن المشاورة هنا هي المقصودة بالمقارنة بين ما سبق إليه النبي وما نبغ فيه نابليون ، فهذه صفة معروفة في كبار القادة لا تؤثر فيما عرفوا به من قدرة على وضع الخطط وابتكار الأساليب .

٦- ولم يعرف عن قائد حديث أنه كان يعنى بالاستطلاع عناية نابليون .

وكانت فراسة النبي ﷺ في ذلك مضرب الأمثال فلما رأى أصحابه يضربون العبدين المستقيين من ماء بدر ؛ لأنهما يذكران قريشاً ولا يذكران أبا سفيان علم بفطنته الصادقة أنهما يقولان الحق ، ولا يقصدان الكذب والتمويه وسأل عن عدد جيش قريش فلما لم يعرفا العدد سأل عن عدد الجِمَال التي يذبحونها كل يوم لطعامهم ، فعرف قوة الجيش بمعرفة مقدار الطعام الذي يُحْتَاج إليه .

وكان النبي ﷺ يستعين في استطلاع أخبار كل مكان بأهل المكان أنفسهم أو أقرب الناس إلى العلم بطبيعته وتضاريسه ، ويعقد ما يسمى الآن مجلس الحرب قبل أن يبدأ بالقتال فيسمع من كل شخص خبير بفن من فنون الحرب أو دلائل الاستطلاع .

٧- واشتهر عن نابليون أنه كان شديد الحذر من الكلام المنطوق باللسان والمكتوب بالأقلام وكان يقول : إنه يخشى من أربعة أقلام أكثر من عشرة آلاف سيف " .

---

(1) نص الحديث الصحيح الذي رواه أحمد والحاكم والبيهقي وغيرهم عن ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَقَامَ الرُّمَاةَ فِي مَوْضِعٍ ثُمَّ قَالَ : " احْمُوا ظُهُورَنَا فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقْتَلُ فَلا تَنْصُرُونَا وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلا تَشْرَكُونَا فَلَمَّا غَنِمَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبَاحُوا عَسْكَرَ الْمُشْرِكِينَ أَكَبَّ الرُّمَاةُ جَمِيعًا فَدَخَلُوا فِي الْعَسْكَرِ يَنْهَبُونَ ... " .

والنبي ﷺ كان أكثر الناس معرفة بأهمية الدعوة في كسب المعارك ، فكان إذا بلغه غدر قوم ونقدهم للعهود وهجائه وهجاء الإسلام واستثارة القبائل فيرسل إلى هؤلاء القوم من يحاربهم في حصونهم أو يخلصه منهم .

عاب بعض الكتَّاب الأوربيين غير المنصفين النبي ﷺ بما يعاب على نابليون من خطف " الدوق " (١) دانجان ومحاولته خطف الشاعر الإنجليزي " كولردج " الذي كان يهجوه ويستميل الناس بسحر حديثه .

والحقيقة أن هناك فارقاً كبيراً بين الحالتين ؛ لأن حروب الإسلام إنما هي حروب غايتها كفاح بين التوحيد والشرك ، وليس وقوف جيش أمام جيش إلا سبيلاً من السبل الصراع .

فمن حارب دعوة الإسلام وطعن في رسالته فإنه يحارب رسول الإسلام وإن لم يحرض الناس على قتال الرسول ﷺ أو نقض عهوده .

أما نابليون فالحرب بينه وبين أعدائه حرب جيوش وسلاح فلا يجوز له أن يقتل أحداً لا يحمل في وجه السلاح ؛ فلم يكن نابليون صاحب دين يريد أن ينشره أو معادياً لدين يريد أن يهدمه ، أما الرسول ﷺ فصاحب دين فمن حارب دينه إنما يحاربه وإن لم يرفع السيف في وجهه ؛ لأن الضرب بالسيف أهون من الطعن في الدين.(٢)

تلك مقابلة مجملة بين الخطط والعادات التي سبق إليها محمد ﷺ وجرى عليها نابليون بعد مئات السنين ، ومن الواجب أن نحكم على قيمة القيادة بقيمة الفكرة أو الخطة قبل أن نحكم عليها بضخامة الجيوش وأنواع السلاح .

---

(1) الدُّوق " أوّل مرتبة من مراتب الشرف عند الإفرنج.
(2) سنفصل الكلام في هذا الموضوع عند حديثنا عن " جهاد الطلب " في التعليق النهائي .

لم يتخذ محمد ﷺ الحرب صناعة ولم يلجأ إليها إلا دفاعاً عن المسلمين أو دفاعاً عن الدين ولقد أتقن الحروب التي أُكْرِه على دخولها لتحقيق هذين الهدفين ، فللنبيﷺ فضل السبق على نابليون جبار الحروب الحديثة الذي تعلمها وعاش لها ولم ينقطع عنها منذ ترعرع إلى أن سكن في منفاه ، ولم يبلغ من نتائجه بعض ما بلغ القائد الأمي بين رمال الصحراء .

الأوامر المختومة

ولقد كانت خبرة النبي ﷺ ببعوث الاستطلاع كخبرته ببعوث القتال ، فكانت طريقته في اختيار المكان والغرض منه أو في اختيار القائد وتزويده بالوصايا والاتباع مثلاً يقتدى به في جميع العصور ، وخاصة العصر الحديث الذي كثرت فيه دوافع التخبئة والمراوغة ودوافع الكشف والدعوة، فكثرت فيه حاجة المقاتلين إلى تتبع أحوال الأعداء.

ففي الحروب الحديثة يتردد ذكر الأوامر المختومة التي تصدر إلى قواد السرايا والسُّفن عند مدينة معلومة أو بعد مسيرة ساعات أو في عرض البحر على درجة معينة من درجات الطول والعرض ، إلى أمثال ذلك من العلامات التي تُعَيَّن بها الجهات . ويتفق في أمثال هذه البعوث أن يكون القائد وحده مطلعاً على سر البعثة ورجاله جميعاً يجهلونه ، ولا يعرفون أهم خارجون في غزوة أم في مناورة استطلاع ، إلى ما قبل الحركة المقصودة بساعات معدودات ، وهناك تصدر الأوامر التي لا بد من صدورها للتهيؤ والتنفيذ ، ولا خوف من كشفها في تلك الساعات لصعوبة الاستعداد الذي يقابلها به العدو إذا انكشف له قبل تنفيذها بفترة وجيزة ، وخاصة إذا كانت الحركة من حركات البحار .

هذه الأوامر المختومة ليست بحديثة ؛ فقد عُرفت في المأثورات النبوية على أتم أصولها التي تلاحظ في أمثالها ومن ذلك أنه ﷺ بعث عبد الله بن جحش ومعه رسالة أمره ألا ينظر فيها إلا بعد يومين من السير ومحتوى الرسالة أن : " سر حتى تأتي

بطن نخلة على اسم الله وبركاته ، لا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك ، وامض فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارها"

وهذا نموذج للأوامر المختومة جامع لكل ما يلاحظ فيها حديثاً وقديماً .

فأولهما كتمان الخبر عمن يحيطون بالنبي ﷺ فلا يبعد أن يكون منهم جاسوس دسته قريش بينهم ، ولا يبعد أن يكون منهم من يبوح بالخبر ولا يريد به السوء أو يدرك ما في إباحة الخبر الخطر المحظور ، ولا يبعد أن يكون منهم الضعفاء والمخالفون وأن الاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان لسنة حكيمة من سنن النبي ﷺ في جميع الأمور ، وهي في الحروب أجدر بالاتباع ، ولهذا " كان إذا أرادَ غزوةً ورَّى (أخفى) بغيرِها " [صحيح الجامع] على النحو الذي يتبعه قادة الحروب إلى الآن .

ومما لوحظ في كتاب النبي ﷺ لعبد الله بن جحش كتمان الخبر عن أصحابه ثم وصايته ألا يكره أحداً منهم على المسير معه بعد معرفته بوجهته ، وهذا هو أهم الملاحظات في هذا المقام .

فقد يحارب الرجل وهو مكره مهدد بالموت مما يجعله يحرِّف الأخبار عمداً أو يتلقاها بغير اهتمام أو يطلع الأعداء على أسرار أصحابه وهم غافلون ؛ ولهذا تعاني الدول أكبر العناء في مراقبة الجواسيس بالجواسيس ، ومراجعة كل خبر حتى تطمئن إلى صحته .

وها هنا تتجلَّى حكمة النبي ﷺ في اشتراط الرغبة والطواعية واجتناب القهر والإكراه. فهذه " أولاً " بعثة منفردة لا سبيل إلى الإكراه الفعَّال بين رجالها إذا أريد.

وهي " ثانياً " بعثة استطلاع لا يغني فيها عمل الكاره المقهور حيث يلزم إيمان العامل وصدق نيته وحسن مودته لمن أرسلوه .

أما غرض البعثة كلها وهو الاستطلاع فقد كان النبي ﷺ عليماً بمزاياه ، مهتماً به غاية الاهتمام ، يحسب العدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار الحصون ، في حمى

من الجهل به قد يمنع الاستعداد له بالعدة الضرورية في الوقت الضروري ، ويمنع من الانتصار عليه .

ونحن نكتب هذه الفصول والحرب الروسية تذكرنا كيف أصيب نابليون في هذا الميدان حين أصيب في وسائل الاستطلاع ، ثم يذكرنا كيف تكررت هذه الغلطة بعينها على نوع من المشابهة بين غزوة نابليون في روسيا أمس ، وغزوة هتلر لتلك البلاد اليوم .

فمن أسباب هزيمة نابليون / إهماله النصائح التي سمعها في مجلس الحرب من بعض الثقات قبل الدخول في الحرب الروسية ؛ لاعتقاده خطأً أن القيصر سيطلب الصلح بعد أسابيع .

ومن أسباب تلك الهزيمة : أن الروس كانوا يتراجعون أمامه تحت ظلام الليل ويخلون المدن والطرقات حتى لا يرى فيها أحداً يسأله عن مكان الجيش المتراجع أو يلتقط من خلال أجوبته ما يعينه على الاستطلاع الذي كان شديد الاعتماد عليه .

أما هتلر فقد هُزم بسبب هذين النقصين كما هزم من قبله نابليون .

واشتهر أن هتلر أخطأ في استطلاع أخبار القوم ، إذ خُيِّل إليه أن الشعب الروسي يتحفز للثورة ، ويترقب الحرب لنصرة المحتل كائناً من كان .

ومحمد ﷺ لم يتعلم ما تعلمه هتلر ونابليون ، ولكنه لم يخطئ قط مثل هذا الخطأ في جميع غزواته ، واستطلاعاته ، ولعلنا نفهم ، كما درسنا زمانه المليء بالعبر والأمثال الباقية ، أن دراسته نوع من دراستنا للعصر الحديث والقادة المحدثين .

وينبغي ألا تمر بنا سرية عبد الله بن جحش دون أن نستوفي كل ما فيها من الشئون العسكرية ؛ لأنها تشتمل على أكثر من جانب واحد من الجوانب السنة النبوية والتشريع الإسلامي في هذه الشئون . فهي سرية استطلاع كما علمنا لم تؤمر بقتال ولم يؤذن لها فيه . لكن حدث بعد فتح الرسالة أن اثنين من رجال السرية ذهبا يطلبان بعيراً لهما ضلّ فأسرتهما قريش ، وهما سعد بن أبي وقاص ، وعتبة بن غزوان .

ثم نزل الركب بنخلة فمرت بهم عير قريش تحمل تجارة عليها عمرو بن الحضرمي، آخر شهر رجب ، وكانت قريش قد حجزت أموال أناس من المسلمين منهم بعض من كان في السرية ، فتشاوروا في قتال العير ، وحاروا فيما يصنعون : إن تركوا العير تمضي ليلتها امتنعت بدخولهم الحَرَم المكي ، وفاتهم تعويض ما حجزته قريش في هذه الفرصة المهيَّأة ، وإن قاتلوا أهلها قتلوهم في شهر حرام ، لكنهم اندفعوا إلى القتال فأصابوا من أصابوه ورمى أحدهم عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله وأسروا رجلين . وعاد عبد الله بن جحش ومن معه إلى المدينة وقد حجزوا للنبي ﷺ الخمس من غنيمتهم فرفض النبي ﷺ وقال لهم : " ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، وعنَّفهم أخوانهم لمخالفة النبي ﷺ ، وأساء أهل المدينة معاملتهم.

وراحت قريش تثير العرب ، واندس جماعة من اليهود يشعلون نار الفتنة ، وقالوا إن محمداً وأصحابه قد أباحوا الدماء والأموال في الشهر الحرام ، وقال المسلمون في مكة: بل كان ذلك في شعبان ، ثمَّ نزلت الآيات ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ [البقرة : ٢١٧] فقبض النبي ﷺ العير والأسيرين ، وطلبت قريش فداءهما فقال النبي ﷺ : " لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا ، فإنَّا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم " .

هذه قصة السرية وما وقع فيها خلافاً لأمر النبي ﷺ وما نتج عنها من تشريع[١] فإذا نحن كتبناها باصطلاح العصر الحديث فكيف نكتبها ؟ وكيف نفهمها ؟ هي لا خلاف حادثة طلائع أو حادثة حدود .

---

(1) قصة سرية عبد الله بن جحش صحيحة رواها ابن هشام عن ابن إسحاق ، وقد رواها البيهقي في سننه الكبرى بسند صحيح عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشٍ=

= إِلَى نَخْلَةَ فَقَالَ لَهُ : " كُنْ بِهَا حَتَّى تَأْتِيَنَا بِخَبَرٍ مِنْ أَخْبَارِ قُرَيْشٍ " . وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِقِتَالٍ وَذَلِكَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يُعْلِمَهُ أَيْنَ يَسِيرُ فَقَالَ : " اخْرُجْ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ حَتَّى إِذَا سِرْتَ يَوْمَيْنِ فَافْتَحْ كِتَابَكَ وَانْظُرْ فِيهِ فَمَا أَمَرْتُكَ بِهِ فَامْضِ لَهُ وَلاَ تَسْتَكْرِهَنَّ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِكَ عَلَى الذَّهَابِ مَعَكَ ". فَلَمَّا سَارَ يَوْمَيْنِ فَتَحَ الْكِتَابَ فَإِذَا فِيهِ : " أَنِ امْضِ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ فَتَأْتِيَنَا مِنْ أَخْبَارِ قُرَيْشٍ بِمَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ ". فَقَالَ لأَصْحَابِهِ حِينَ قَرَأَ الْكِتَابَ : سَمْعٌ وَطَاعَةٌ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ لَهُ رَغْبَةٌ فِي الشَّهَادَةِ فَلْيَنْطَلِقْ مَعِي فَإِنِّي مَاضٍ لأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ كَرِهَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَرْجِعْ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ نَهَانِي أَنْ أَسْتَكْرِهَ مِنْكُمْ أَحَدًا فَمَضَى مَعَهُ الْقَوْمُ حَتَّى إِذَا كَانَ بِبَحْرَانَ أَضَلَّ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَعُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ بَعِيرًا لَهُمَا كَانَا يَعْتَقِبَانِهِ فَتَخَلَّفَا عَلَيْهِ يَطْلُبَانِهِ وَمَضَى الْقَوْمُ حَتَّى نَزَلُوا نَخْلَةَ فَمَرَّ بِهِمْ عَمْرُو بْنُ الْحَضْرَمِيِّ وَالْحَكَمُ بْنُ كَيْسَانَ وَعُثْمَانُ وَالْمُغِيرَةُ ابْنَا عَبْدِ اللَّهِ مَعَهُمْ تِجَارَةٌ قَدِمُوا بِهَا مِنَ الطَّائِفِ أَدَمٌ وَزَبِيبٌ فَلَمَّا رَآهُمُ الْقَوْمُ أَشْرَفَ لَهُمْ وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَكَانَ قَدْ حَلَقَ رَأْسَهُ فَلَمَّا رَأَوْهُ حَلِيقًا قَالُوا عَمَّارٌ لَيْسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ بَأْسٌ وَائْتَمَرَ الْقَوْمُ بِهِمْ يَعْنِي أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ رَجَبٍ فَقَالُوا : لَئِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَتَقْتُلُونَهُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَلَئِنْ تَرَكْتُمُوهُمْ لَيَدْخُلُنَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الْحَرَمَ فَلَيَمْتَنِعُنَّ مِنْكُمْ فَأَجْمَعَ الْقَوْمُ عَلَى قَتْلِهِمْ فَرَمَى وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ عَمْرَو بْنَ الْحَضْرَمِيِّ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ وَاسْتَأْسَرَ عُثْمَانَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَالْحَكَمَ بْنَ كَيْسَانَ وَهَرَبَ الْمُغِيرَةُ فَأَعْجَزَهُمْ وَاسْتَاقُوا الْعِيرَ فَقَدِمُوا بِهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُمْ : " وَاللَّهِ مَا أَمَرْتُكُمْ بِالْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ " .

فَأَوْقَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الأَسِيرَيْنِ وَالْعِيرَ فَلَمْ يَأْخُذْ مِنْهَا شَيْئًا فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أُسْقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَظَنُّوا أَنْ قَدْ هَلَكُوا وَعَنَّفَهُمْ إِخْوَانُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَقَالَتْ قُرَيْشٌ حِينَ بَلَغَهُمْ أَمْرُ هَؤُلاَءِ قَدْ سَفَكَ مُحَمَّدٌ الدَّمَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَأَخَذَ فِيهِ الْمَالَ وَأَسَرَ فِيهِ الرِّجَالَ وَاسْتَحَلَّ الشَّهْرَ الْحَرَامَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ يَقُولُ الْكُفْرُ بِاللَّهِ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ فَلَمَّا نَزَلَ ذَلِكَ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعِيرَ وَفَدَى الأَسِيرَيْنِ فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ أَتَطْمَعُ لَنَا أَنْ تَكُونَ غَزْوَةً فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ وَكَانُوا ثَمَانِيَةً وَأَمِيرُهُمُ التَّاسِعُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ." [حديث مرسل صحيح رواه البيهقي في السنن الكبرى]

ترسل إحدى الدول طليعة من جندها إلى حدودها للكشف أو للحراسة فيقع الاشتباك بينها وبين طليعة في بلاد دولة أخرى على غير علم من الحكومتين .

فالذي يحدث في هذه الحالة أن تنظر الحكومة الأخرى إلى المسالة كأنها مسالة فردية عَرَضيَّة لا تستوجب القتال ، وتكتفي بما ينال المسئولين على أيدي حكومتهم من جزاء أو تأنيب ، وينتهي النزاع . هذا أو تصرُّ الحكومة الأخرى على طلب الترضية ، فإن قبلتها الحكومة المطلوبة فالنزاع منحسم ، وإن لم تقبلها فالمفاوضة والمساومة أو الحرب .

ذلك إذا نظر الفريقان إلى المسألة كأنها مسألة فردية عرضية ولم يشأ أحدهما أو كلاهما أن يضعاها موضع التشريع العام لتقرير الحكم الذي تجريان عليه فيها وفي أمثالها ، أو تقرير ما يعرفان به وما ينكرانه من الأصول .

وقريش لم تكتف بالنظر إلى حادثة سرية عبد الله بن جحش كأنها حادثة فردية عَرَضية ، ولم تعلن الحرب ساعتها ؛ لأنها تخفي النية لإعلانها بعد حين ، ولكنها أثارت مسألة تشريع عام في قتال الشهر الحرام ، فوجب أن ينص الإسلام على هذا التشريع صريحاً لا لبس فيه ، وهذا الذي كان .

ليست المسألة أن عبد الله بن جحش قد خالف أمر النبي ﷺ فهذا أمر مفروغ منه ولا مكان للبحث فيه . إنما المسألة هي : ما الحكم بعد الآن في قتال الأشهر الحُرُم؟ وماذا يبلغ من حق المشركين في الاحتماء بحرمة هذه الأشهر إذا كانوا لا يراعون للمسلمين حرمة ولا يزالون يقاتلونهم ويردونهم عن دينهم ما استطاعوا ؟ وما الجواب على تشهير قريش واحتجاجها بالحرمات التي لا ترعاها ؟

هذا هو الحكم الذي وجب أن يعلنه الإسلام ، وقد أعلنه على الوجه الذي التزمت به الشرائع الحديثة في علاقاتها الحربية ولا تزال تلتزم به حتى اليوم ، فهناك حرمات دولية إذا خالفتها إحدى الدول بَطُلَ احتماؤها بها وأحلَّ لغيرها أن يخالفها كما خالفتها،

أو يتخذ من القصاص ما يردع الشر ويعوض الخسارة ، وإلا كانت الحرمات حماية للمعتدين ، ولم تكن مانعاً لهم وسدّاً في وجوههم كما أريد بها أن تكون .

واليوم تتقطع العلاقة بين دولتين في حالة حرب أو جفاء فيجوز لكلتيهما أن تحجز ما عندها من أموال الدولة الأخرى ، وأن تأسر الذين في بلادها من رعايا ، ويجوز لها أن تجعل تلك الأموال ضماناً لسداد العقوبات التي تنزل بها وبأبنائها ، وأن تتخذ من المعتقلين رهائن تعاملهم بمثل ما يعامل به المعتقلون من أبنائها ، في سجون الدولة الأخرى .

فالذي حدث بعد سرية عبد الله بن جحش هو هذا بعينه ، وهو حكم القانون الدولي المتفق عليه : أسيران بأسيرين، وأموال العير بالأموال التي احتجزتها قريش للمسلمين. ولا مجال لضجة الناقدين من المبشرين والمتعصبين في تعقيبهم على هذا الحادث المألوف أو حكم النبي ﷺ والإسلام فيه . فإن أصحاب هذه الضجة يعمون عما حولهم وينسون أن المعاملات الدولية في زمانهم لم تفصل في أمثال هذه الحوادث بحكم أنفع ولا أعدل من الحكم الذي ارتضاه النبي ﷺ ونزل به القرآن ، وهو حكم المساواة ، ويحتار الظالم لو أراد أن يستبدل به ما هو خير منه وأقرب إلى التطبيق والاتباع .

وكان هذا القائد الملهم الخبير بتجنيد بعوث الحرب وبعوث الاستطلاع خبيراً كذلك بتجنيد كل قوة في يديه متى وجب القتال : قوة رأي ، أو قوة لسان ، أو قوة نفوذ ، فما نعرف أن أحداً وجَّه قوة الدعوة توجيهاً أحكم ولا أنفع في بلوغ الغاية من توجيهه ﷺ .

غرضان

والدعوة في الحرب لها غرضان أصيلان بين أغراضها العديدة ، أحدهما : إقناع خصمك والناس بحقك ، وهذا قد تكفل به القرآن الكريم والحديث الشريف ، ودعاة الإسلام جميعاً ، فالدين كله دعوة من هذا النوع .

وثانيهما : إضعاف خصمك عن قتالك بإضعاف عزمه وتشتيت صفوفه ، وربما بلغ النبي ﷺ برجل واحد من أصحابه في هذا الغرض ما لم تبلغه الدول بالفرق المنظمة ، وبالمكاتب والدواوين وأكياس الأموال .

قال ابن إسحاق ما ننقله ببعض التصرف : " إن نعيم بن مسعود الغطفاني أتي رسول الله مسلماً ، أوصاه أن يكتم إسلامه ورده على المشركين يوقع بينهم ، وقال له :إنما أنت فينا رجل واحد فخذِّل عنا (فرق بينهم واضعف رغبتهم في قتالنا) إن استطعت ، فإن الحرب خدعة . فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة – وكان لهم نديماً في الجاهلية – فقال : يا بني قريظة ، قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا صدقت ، لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبنائكم ونسائكم لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد ﷺ وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم (نصرتموهم) عليه ، وبلدهم وأموالهم ونسائهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نهزة (فرصة) أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ثقة لك على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه (قاتلوه) . فقالوا له : لقد أشرت بالرأي . ثم خرج حتى أتي قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من قريش : قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً ، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت علي حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم ، فاكتموا عني قالوا : نفعل .

قال : تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين ـ قريش وغطفان ـ رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من

بقي منه حتى نستأصلهم(تقتلهم عن آخرهم) ؟ فأرسل إليه أن نعم . فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً .

ثم خرج حتى أتى غطفان ، فقال : يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلي ، ولا أراكم تتهمونني ، قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم .

قال : فاكتموا عني .

قالوا : نفعل ، فما أمرك ؟

فقال لهم مثل ما قال لقريش ، وحذرهم مثل ما حذرهم .

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس ، أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه ، فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ولسنا مع ذلك بمقاتلي محمد حتى تعطونا رهناً من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا ، فإنا نخشى - إن ضرستكم (اشتدت) الحرب واشتد عليكم القتال - أن تنشمروا (تفرُّوا) إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ، ولا طاقة لنا بذلك منه.

فلما رجعت إليه الرسل بما قالت بنو قريظة ، قالت قريش وغطفان : والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا إلى بني قريظة : إنا والله لاندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا .

وقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا : إن الذي ذكر لكم نعيم لحق، ما يريد القوم إن يقاتلوا ، فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم .

وخذَّل الله بينهم وبعث الله عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم ثم رحلت قريش وغطفان إلى بلادها ، وانصرف رسول الله ﷺ عن الخندق راجعاً إلى المدينة ." (١)

هذه دعوة نعيم بن مسعود .

وما نجحت دعوة قط برجل واحد نجاح هذا الرجل ، ولا انتهزت فرصة العناصر الطبيعية (٢) والعناصر التي تتألف منها جماعة الأعداء كما انتهزت هذه الفرصة . فكل كلمة قيلت لطائفة من طوائفهم فهي الكلمة التي ينبغي أن تقال في الوقت الذي ينبغي أن تفعل فيه فعلها ، وهذه هي دعوة الإضعاف والتمزيق كأقوى ما تكون .

قائد بغير نظير

عندما نقارن بين المعارك القديمة والمعارك العصرية ينبغي أن ننظر إلى فكرة القائد قبل أن ننظر إلى ظواهر المعارك ، أو إلى أشكالها وأحجامها ، لأننا إذا نظرنا إلى الظواهر فلا معنى إذن للمقارنة على الإطلاق إذ من المقطوع به أن عشرة ملايين يتجمعون في ميدان واحد أضخم من عشرة آلاف ، وأن حرباً تدار باللاسلكي والتليفون أعجب من حرب تدار بالفم والإشارة ، وإن نقل الجنود بالطائرات والدبابات أبرع من نقلهم على ظهور الخيل والإبل ، وأن المدفع أقوى من السيف ، والرصاصة أقوى من

---

(1) قال الألباني تعليقاً على هذه الرواية : " هذه القصة بدون إسناد لكن قوله ﷺ الحرب خدعة صحيح متواتر عنه ﷺ رواه الشيخان .

(2) يفهم من كلام العقاد " فرصة العناصر الطبيعية " أن ما حدث للأحزاب الذين جاءوا لقتال المسلمين من هبوب ريح باردة شديدة البرد ، جعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم أن كل هذا جاء مصادفة ولم تكن إحدى المعجزات التي أيد الله بها نبيه وهذا مخالف لقول النبي ﷺ في دعائه بعد غزوة الخندق " لا إله إلا اللهُ وحده . أعزَّ جندَه . ونصر عبدَه . وغلب الأحزابَ وحدَه . فلا شيءَ بعدَه . " (متفق عليه)

السهم . فلا معنى إذن لمقارنة بالظواهر تنتهي إلى نتيجة واحدة ، هي استضخام الحرب الحديثة والنظر إلى القيادة الماضية كأنها شيء صغير إلى جانب القيادة التي توجه هذه الضخامة . لكننا إذا نظرنا إلى فكرة القائد ، أمكننا أن نعرف كيف أن توجه ألف رجل تدل على براعة في القيادة لا نراها في توجيه مليون ، بينهم الماشي والراكب ، ومنهم من يركبون كل ما يركب من مخلوقات حية وآلات مخترعة .

وهذه الفكرة هي التي ترينا محمداً ﷺ قائداً حربياً بين أهل زمانه بغير نظير في رأيه، وفي الانتفاع بمشورة أصحابه ، وتبرز لنا قدرته النادرة بين قادة العصور المختلفة في حسن استخدام قوى الرأي والسلاح والكلام .

وهذه القدرة هي شهادة كبرى لرسول تأتي من طريق الشهادة للقائد الخبير بفنون القتال .

فمن كانت عنده هذه الأدوات النافذة فاقتصر بها على الدفاع واكتفى منها بالضروري الذي لا مهرب منه وهو الدفاع عن الإسلام والمسلمين فذلك هو الرسول ﷺ الذي تغلب فيه الرسالة على القيادة العسكرية ، ولا يلجأ إلى هذه القيادة إلا حين تفرضها رسالة الهداية .

ويزيد هذه الشهادة عِظَماً أن الرجل الذي يتجنب القتال في غير ضرورة رجل شجاع، وليس كبعض المصلحين الذين تتفوق فضيلة الطيبة على فضيلة الشجاعة ، فيمتنعون عن القتال لأنهم ليسوا بأهل قتال .

إن بعض المستشرقين زعموا أنه ﷺ قد اشترك في حرب الفُجَّار قبل بعثته بتجهيز السهام لأنه غير قادر على المشاركة في الحرب بغير ذلك ، وهذا خطأ في معرفة كل صفات هذه النفس العظيمة التي تعددت جوانبها حتى تجمعت فيها أطيب صفات الحنان وأكرم صفات الشجاعة والإقدام .

فمحمد ﷺ كان في مقدمة رجاله حين تشتعل نار الحرب وكان علي بن أبي طالب، فارس الفرسان ، يقول : " : " كنَّا إذا احْمَرَّ البأسُ (اشتعلت الشدة) ولقيَ القومُ القومَ، اتَّقَينا برسولِ اللَّهِ ﷺ فما يَكونُ منَّا أحدٌ أدنا مِنَ القومِ منهُ " [صحيح رواه أحمد]

ولولا ثباته ﷺ في وقعة حنين لهزم المسلمون ، وقد فرَّ أكثر المسلمين وأوشك أن يبقى وحده في وجه الأعداء .. وفي غزوة الأحزاب طاف النبي ﷺ بالمدينة ليلاً مستطلعاً رغم تهديد الأعداء وحصارهم وكان يمكن أن يأمر غيره فيقوم بهذه المهمة بدلاً لكنه أراد أن يرى بنفسه مما يدل على شجاعته العظمى .

لقد كانت مشاركة النبي ﷺ في الغزوات مشاركة القائد الذي يشارك الجنود فيما يقومون به رغم أنه مسئول عن القيادة التي يجب التفرغ لها وعدم المشاركة في القتال.

خصائص العظمة

للعظمة خصائص تدعو إلى الإعجاب ومن تلك الخصائص أنها قد توصف بالنقيضين في وقت واحد لأنها متعددة فيراها أناس على صورة ويراها غيرهم على صورة أخرى ، وربما رأتها العين الواحدة على اختلاف في الوقتين المختلفين .

ولأنها تدفع إلى الحب الشديد كما تدفع إلى البغض الشديد ، وبين الطرفين يكون الاعتدال الذي لا يدركه إلا العقلاء ومجال للمغالاة من هنا وللمغالاة من هناك ، ولأنها عميقة الأبعاد فلا يسهل معرفة حقيقتها لكل ناظر ، ولا يعرف تفسيرها كل مفسر . هذا إذا سلمت النفوس من سوء النية ، فأما إذا ساءت النيات وسيطرة الهوى على أصحاب الإدراك والعلم والفطنة فلا عجب إذن في الضلال .

ومن خصائص العظمة النبوية في محمد ﷺ أنه وصف بالنقيضين على ألسنة المتعصبين من أعداء دينه ، فهو عند أناس منهم صاحب رقَّة تحرمه القدرة على

القتال ، وهو عند أناس آخرين صاحب قسوة تدفعه إلى القتل وسفك الدماء بغير جريمة ارتكبوها . والنبي ﷺ منزه عن هذا وذاك .

فإذا كانت شجاعته ﷺ تنفي الشبهة في رقة الضعف والخوف المعيب ، فحياته كلها منذ طفولته تنفي عنه الشبهة في القسوة والجفاء فقد كانت صلته بأهله وبمرضعته وأصحابه وزوجاته وخدمه مثلاً للرحمة التي لا نظير لها في الأنبياء . (١)

والحوادث التي ذكرها المتعصبون ليستدلوا بها على إهدار الدماء بغير جريمة فأكثرها لم يثبت أبداً وخاصة القول بتحريض النبي ﷺ على قتل " عصماء بنت مروان " اليهودية لأنها كانت تهجو الإسلام والمسلمين ، فإن النبي ﷺ قد نهى في قول صريح عن قتل النساء وكرر نهيه في أكثر من حديث (٢) حتى قال بعض الفقهاء بمنع قتل المرأة وإن خرجت للقتال ، ما لم يكن ذلك لدفع خطر لا يدفع بغير قتلها .

والحادث الوحيد الذي يستحق الالتفات إليه هو مقتل كعب بن الأشرف الذي كان يهجو المسلمين ويعيب دينهم ، ويحرض عليهم الأعداء ويأمر بقتل النبي ، ويدخل في كل دسيسة تنقض معالم الإسلام . وكان مع قومه بني النضير معاهداً على أن يحالف المسلمين ، ويحارب من يحاربونهم ، ولا يخرج لقتالهم . فنقض العهد وزاد وحرَّض العرب مع قومه على النبي ﷺ وأصحابه ، وأنه آذى نساء المسلمين بغزله

---

(1) كان الأولى أن يكتفي العقاد بقوله " لا نظير لها " دون زيادة " في الأنبياء " فمن الأحوط ألا نفاضل بين الأنبياء لقول تعالى : " ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥] فجميع الرسل صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير والرشاد ، وقد صحَّ نهي النبي ﷺ عن تفضيله على موسى أو يونس بن متى صلى الله عليهم وسلم.

(2) من هذه الأحاديث ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال : " وجِدَتِ امرأةٌ مقتولةً في بعضِ مغازي رسولِ اللهِ ﷺ ، فنهى رسولُ اللهِ ﷺ عن قتلِ النساءِ والصبيانِ . "

الفاحش ، وافترى عليهن وعليهم ما ليس يفتري به رجل شريف ، ولا يرضاه في عرضه عربي غيور .

ورد في حديث مقتله أن الجماعة الذين خرجوا لقتله ذهبوا إلى حصنه فهتف به أبو نائلة – وكان متزوجاً حديثاً – فلبس ثيابه ، فأمسكت امرأته بثيابه وقالت له : " إنك امرؤ محارب ، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة " .

وصدقت امرأته حين وصفته بأنه محارب يعامل معاملة المحاربين وقد نقضوا أَيْمانهم . فلم يكن محافظاً على عهده ، ولو لم يكن له رادع من نفسه ولا من قومه، ولم يكن مأموناً على المسلمين وهو محتمٍ بحصنه ؛ فهو أقل الناس حقاً في أمان. وجاء في الخبر أن النبي ﷺ أقرَّ قتله ، فعاب بعض المؤرخين الأوربيين ذلك ، وحسبوه خروجاً على العرف المتبع في الحروب . يشبه فعلة نابليون الكبير حين أمر باختطاف الدوق دنجان ومحاكمته بغير حق ، مع ما بين الحادثين من فرق بعيد بيناه من قبل فلا نعود إليه .

إلا أننا نوجز هنا ، فلا نزيد على أن نشير إلى حكم القانون الدولي في أحدث العصور على من يؤخذون بصنيع معيب كصنيع ابن الأشرف ، وإن لم يبلغ مبلغه من الغدر والإساءة إلى الأعراض وذلك هو حكم الأسير الذي ينطق بعهد الشرف ألا يعود إلى القتال فإن القانون الدولي يوجب عليه أن يوفي بعهده ، ويوجب على حكومته ألا تكلفه بعمل ينقض ما عاهد الأعداء عليه ، ويقضي بحرمانه حق المعاملة كما يعامل أسرى الحرب إذا رفع السلاح على الذين أطلقوا سراحه أو على حلفائهم المحاربين في صفوفهم ، ويصح إذن أن يحاكم كما يحاكم المذنبون ويقضي عليه بالموت .

فقوانين العصر الحديث إذن تعاقب بالموت جريمة أهون من جريمة كعب بن الأشرف بكثير ؛ لأنه تجاوز الغدر إلى التحريض والطعن في الأعراض . وليس في

توقيع هذه الأحكام قسوة ولا رحمة ؛ لأن الأساس فيها هو الضرورة التي أوجبت القصاص وفرضته على الناس في أحوال السلم بين أبناء الأمة الواحدة ، فضلاً عن أحوال القتال بين الأعداء .

أسرى غزوة بدر

يأخذ بعض المستشرقين على النبي ﷺ قتل بعد الأسرى بعد غزوة بدر ، وخروج النبي ﷺ إلى ساحة الحرب لرؤية قتلى المعركة وغنائمها بعد انتهائها .

وهذا الأمر لا يصح الحكم فيه إلا بالنظر إلى ظروف موقعه وأشخاصه ؛ لأنه ليس بالحكم العام الذي اتبعه الإسلام في جميع الأسرى وجميع الحروب وإنما هي حالة أفراد كانوا معروفين بتعذيب المسلمين والتنكيل بهم في غير مبالاة ولا مروءة. وليست هي كحالة الأسرى الذين يقعون في أيدي أعدائهم غير معروفين بتاريخ ماض ولا بحاضر غير أنهم جند كسائر الجند . فقتل الأسرى بعد بدر ما هو إلا قصاص من المتهمين بالتعذيب وقد وقعوا في أيدي أصحاب الحق بعد أن نصرهم الله ، وهذا جائز في كل قانون جائز أن يحاسب المغلوب على جرائمه التي ليست هي من فروض القتال أو من باحاته في شيء . وفرق بين معاملة ومعاملة أسير كل ما تعلمه في شأن أنه جندي لا بغضاء بينك وبينه قبل حمل السلاح ولا بعد وضع السلاح ، وليس في عمله محل للثأر والمحاسبة بعد انقضاء واجبه وهو القتال الشريف .

أما رؤية القتلى في ساحة القتال فإن فرحة المنتصر بفوزه طبيعة إنسانية لا عيب فيها ما لم تتجاوز حدها إلى الفرح بمجرد رؤية الدماء ، ولم يذكر أحد ممن شهدوا المعركة : أن النبي ﷺ كان سعيداً برؤية الدماء إنما كان سعيداً بانتصار الحق على الباطل .

ونسي أولئك الناقدون كذلك أن الرجل الذي يرى الدم في المدنية العصرية ، غير الرجل الذي يرى الدم في حروب البادية وفي حياة البادية بصفة عامة . ونعني بها

حياة الرعاة التي تتكرر فيها إراقة الدم كل يوم ، وحياة القبائل التي كانت تغزو وتُغزى في كثير من الأيام .

فإنك لا ترمي بالقسوة طبيباً قد ألف النظر إلى الجثث وأشلائها والأجسام الحية وجراحها ؛ لأن الطب لن يكون في الدنيا رحمة من الرحمات إن لم يألف الأطباء هذه المناظر ويملكوا أنفسهم وهم يفتحون أعينهم عليها لكنك قد ترمي بالقسوة إنساناً لم تقع عينه على منظر مثلها ثم هي تفاجئه فلا ينفر منها وما من رجل عاش في البادية وشهد غزوة من غزواتها يمكن أن يقال فيه أن ساحة الحرب تفاجئه بما لم يكن يراه ، أو بما يستلزم النظر إليه قسوة في الطباع واستراحة إلى رؤية الدماء .

كان على أولئك الناقدين أن يشهدوا بدراً لينظروا بعين النبي ﷺ إلى عواقب هذه الوقعة التي أوشكت أن تصبح الوقعة الحاسمة في تاريخ الإسلام .

كان عليهم أن ينظروا هنالك بعين النبي ﷺ إلى جيشين : احدهما فيه السلاح والخيل والعدد ، والآخر في ثلث من يقاتلونه عدداً ، ويكاد يتجرد من كل سلاح غير السيف ومن كل وسيلة نقل عير الأقدام ، وكان عليهم يلمسوا إشفاق النبي ﷺ من عاقبة هذه الوقعة ، ويستمعوا إليه وهو يدعو ربه : " اللهم هذه قريش قد أتت بخيلها وخيلائها (فخرها) تكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني " اللهم أن تهلك هذه العصابة (الجماعة) اليوم لا تعبد .." (١)

---

(1) نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم " لما كان يومُ بدرٍ ، نظر رسولُ اللهِ ﷺ إلى المشركين وهم ألفٌ ، وأصحابُه ثلاثمائةٍ وتسعةَ عشرَ رجلا . فاستقبل نبيُّ اللهِ ﷺ القبلةَ . ثم مدَّ يدَيه فجعل يهتف بربِّه) اللهمَّ ! أَنجِزْ لي ما وعدتَني . اللهمَّ ! آتِ ما وعدتَني . اللهمَّ ! إن تهلِك هذه العصابةُ من أهلِ الإسلامِ لا تُعبدُ في الأرض) فما زال يهتف بربِّه ، مادًّا يدَيه ، مستقبلَ القبلةِ ، حتى سقط رداؤُه عن منكبَيه . فأتاه أبو بكرٍ . فأخذ رداءَه فألقاه على منكبَيه . ثم التزمه من ورائِه وقال : يا نبيَّ اللهِ ! كفاك مُناشدتُك ربَّك . فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال:٩] .

وكان عليهم أن ينظروا إليه وقد مدَّ يديه وجمع نفسه في صلاته حتى جعل رداؤه يسقط عن منكبيه وأبو بكر رده ويناديه : " بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعد ، وهو لا يلفت إلى سقوط ردائه ولا إلى مناداة صفية ، لاستغراقه في الدعاء ..".

كان على الناقدين أن يعلموا حرص قريش أن يستبقوا رجلاً منهم يرجعون إلى مكة قبل المعركة أو بعدها لمعاداة النبي ﷺ وإعادة الهجوم عليه حتى لا يهدأ له بال بعد الصبر على هذا الجهد ، وليس الصبر عليه بيسير .

كان على الناقدين أن يعموا هذا كله ليعلموا أن الشعور بالفرح في مثل هذا الموقف العصيب أمر لا غرابة فيه ، وأنه شعور مطبوع في نفس حيَّة تجاوب كل ما يحيط بها من دوافع الحياة في مواقف السلم أو مواقف القتال ، فأول ما يبادر النفس الحيَّة من شعور مطبوع صادق في ذلك الموقف أن تغتبط بالنصر ، وتخرج من الضيق إلى الفرج ، وتنظر في ساحة الحرب إلى من قتل فيها من قريش ومن عاد منه إلى بيته ليبدأ الإيذاء والمكيدة ، وأن ترى ما هي الغنائم التي أوشكت أن تفتن بعض المقاتلين ؛ لأنها أول شيء شهدوه من نوعه ، ولمَّا يتنزل حكم الدين في الغنائم والأنفال .

إن محمداً ﷺ رجل حيٌّ جياش النفس بدوافع الحياة ، وليس بناسك مهزول من سَّاك الصوامع الذين يكبتون في قولبهم كل رغبة وكل إحساس . (١)

---

(1) لم يكن النبي ﷺ كما زعم العقاد ، جياش النفس بدوافع الحياة وهو القائل : " مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا الْغَدْوَةُ يَغْدُوهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ الرَّوْحَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا " [متفق عليه] وقال : " الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ." [صحيح رواه أحمد وابن حبان] وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسَ قَالَ : مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِشَاةٍ مَيْتَةٍ قَدْ أَلْقَاهَا أَهْلُهَا ، فَقَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا." [حديث صحيح لغيره رواه أحمد] ويقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى{ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ } "الدنيا متاع فانٍ لمن ركن إليه فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة." فالدنيا مزرعة للآخرة واهتمام النبي ﷺ بالدنيا بهذا المعنى فالدنيا مكان دعوته وجهاده =

فامتناعه أن يشهد نتيجة المعركة التي سبقتها كل تلك المخاوف ، وستلحق بها كل تلك العواقب أمر لم يكن بالمنتظر من قائد في مثل موقفه ، ولم تكن توجيه الفطرة الإنسانية على المقاتل ، وهو اللحظة الأولى بعد الانتصار جدير أن يعلم مدى انتصاره ، ومدى ما يتوقعه بعده ، ومدى ما تفعله الفئة القليلة بالفئة الكثيرة ؛ ليقيس عليه ما تفعله مثلها فيما يليها من حروب ، وهؤلاء مراسلو الصحف الحربيون الذين يدرسون اليوم أشباه هذه المواقف ، يجدون من واجبهم ألا يتخلفوا عن ساحات القتال بعد انتهاء المعركة ، ليشرحوا دروس النصر والهزيمة ، ويسجلوا ما لا غنى عن تسجيله في جميع الحروب ، فانصراف محمد ﷺ عن ساحة بدر بعد النصر عمل غريب يخلُّ بمكانة القائد ، وبواجب التحقيق ، والاستفادة من كل ما يفيد . ولقد كان النبي ﷺ في اللحظة الأولى من النصر ويريد أن يعلم مدى انتصاره ؛ ليقيس عليه ما يليه من حروب .

بعد معركة الأحزاب

ونحن في صدد الحديث عن الرحمة والقسوة يحسن بنا أن نستقصي ما ذكره المؤرخون الأوربيون من مآخذ في هذا الموضوع ، وأهمه غير ما ذكرناه هو قتل النبي المحاربين من بني قريظة بعد معركة الأحزاب ، فإن أولئك المؤرخين يستعظمون قتلهم ويحسبونه مخالفاً للعرف المتبع في الحروب ، ونسوا أموراً لا يصدق الحكم في هذه المسألة ما لم يذكروها ويستحضروها أتم استحضار وهي ان أن بني قريظة نقضوا عهدهم من رسول الله مرات ، فلا يفيد معهم العهود من جديد، وأنهم قبلوا حكم سعد بن معاذ وهم الذين اختاروا ، وأن سعداً إنما أدانهم بنص التوراة الذي يؤمنون به كما

= ووسيلته لإرضاء ربه ودخول الجنة لا موضع استمتاعه وغاية آماله . فالمطلوب من الإنسان في الدنيا : عبادة الله تعالى وإصلاح الدنيا وتعميرها ، والزاهد يتفرغ لعبادة الله ويهمل تعمير الدنيا وإصلاحها ، وطالب الدنيا ينشغل بالنعمة عن المنعم وبالدنيا عن الآخرة .

جاء في سفر التثنية : " [10]«حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِكَيْ تُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا إِلَى الصُّلْحِ، [11]فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلَى الصُّلْحِ وَفَتَحَتْ لَكَ، فَكُلُّ الشَّعْبِ الْمَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لَكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لَكَ. [12]وَإِنْ لَمْ تُسَالِمْكَ، بَلْ عَمِلَتْ مَعَكَ حَرْبًا، فَحَاصِرْهَا. [13]وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَى يَدِكَ فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. [14]وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ وَالْبَهَائِمُ وَكُلُّ مَا فِي الْمَدِينَةِ، كُلُّ غَنِيمَتِهَا، فَتَغْتَنِمُهَا لِنَفْسِكَ، وَتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ الَّتِي أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ. " [إصحاح ١٠ إلى ١٥ تثنية]

وينبغي أن يسأل الناقدون أنفسهم بعد هذا : ماذا كان مصير المسلمين لو انتصرت الأحزاب على المسلمين ؟

فالقضاء الذي قضاه النبي ﷺ في بني قريظة عدل وحكمة وصواب وما من أحد يقضي غير ذلك القضاء وهو مؤتمن على مصير أمة يريد أن يرحمها من غدر أعدائها وشدة خصومتها ، ومن استباحتهم كل منكر في التربص والهجوم بعد الهجوم عليها .

وإن حملة تأديبية واحدة من حملات العصور الحديثة يقوم بها قوم مسلحون على قوم عزّل يدافعون عن أوطانهم وحقوقهم لفيها من القتل والتعذيب ما لم يحدث مثله في عقاب بني قريظة ، ولا في جميع الحروب التي نشبت بين النبي ﷺ وبين أعداء له ولدينه ، وهم المتفوقون عليه في العدد والثروة والسلاح .

إن عبقرية محمد ﷺ في قيادته لعبقرية ترضاها فنون الحرب ، وترضاها المروءة، وترضاها شريعة الله والناس ، وترضاها الحضارة في أحدث عصورها ، ويرضاها المنصفون من الأصدقاء والأعداء .

***